بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الكهف

هي سورة مكية، تدور آياتها وموضوعاتها حول «الإيمان والمادية». وكل ما فيها يكشف جوانب من إعجاز القرآن، ونبوة محمد ﷺ. وهي تبدأ بقوله سبحانه:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ هو الوصف بالجميل الثابت ﴿لِلَّهِ﴾ تعالىٰ. والمراد من هذه العبارة: الإعلام بمضمونها للإيمان، أو الثناء علىٰ الله به، أو هما معًا.

هو الله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمد ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ﴾ أي: فيه ﴿عِوَجَا﴾ أي: اختلافًا وتناقضًا.

وكان هذا الكتاب..

﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿قَيِّمًا﴾ أي: مستقيمًا كل ما فيه، عاليًا علىٰ سائر الكتب. وقد أنزل الله القرآن علىٰ محمد ﴿لِّيُنذِرَ﴾ الكافرين، ويخوفهم به ﴿بَأْسًا﴾ عذابًا ﴿شَدِيدًا﴾ في الدنيا والآخرة ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: من عنده.

﴿وَيُبَشِّرَ﴾ به أيضًا ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، الذي يزكي النفس، ويسعد العباد ويصلح البلاد. يبشرهم ﴿أَنَّ

﴿لَهُمْ﴾ عند الله ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو الجنة. كما يبشرهم بالإقامة الدائمة في الجنة.. ﴿مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي: مقيمين في ذلك النعيم الذي لا انتهاء له ولا انقضاء.

ثم بين الله مَن ينذرهم محمد ﷺ بهذا القرآن، فقال تعالى:

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾

أي: ﴿وَيُنذِرَ﴾ بهذا القرآن، ويخوِّف بما فيه من آيات العذاب.. الكافرين ﴿الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ كمشركي العرب، الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله، وغيرهم كاليهود والنصارىٰ. وذلك.. لأن هؤلاء:

﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾

يعني: ليس لهم بقولهم ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: لون من علم ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ كذلك أي علم.

﴿كَبُرَتْ﴾ عظمت وساءت ﴿كَلِمَةً﴾ أي هذه المقولة ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ لا من عقولهم؛ إذ ليس عندهم بها من علم يدفعهم إلىٰ قولها.

وحقيقة.. ﴿إِن﴾ أي: ما ﴿يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ يكذبونه.

هذه هي حقيقة الكافرين، وحقيقة أقوالهم، فلا تهتم يا محمد، ولا تغتم من أجل عدم إيمانهم.

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾

أي: ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا محمد ﴿بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ مهلكها ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ بعد توليهم وبعدهم عنك ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ وهو القرآن ﴿أَسَفًا﴾ أي: مهلك نفسك غيظًا وحزنًا؛ لعدم إيمانهم.

يا محمد، هؤلاء غرتهم الحياة المادية، وفتنتهم عن الإيمان.. فلا تحزن لعدم إيمانهم، ولا تنشغل عن دعوتك.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾

حيث: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ من الحيوان والنبات والبحار وخلافه ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ يتمتعون بها. وذلك ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ أي: لنختبر الناس، ونكشف عن إيمانهم بوحدانية الله وقدرته، وليظهر ﴿أَيُّهُمْ﴾ أكثر إيمانًا، و ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فنجازيه وننعم عليه برضواننا. والعاقل مَن عرف زوال هذه الأرض، وفناء زينتها، ولم يكفر، ولم يطغ بسبب ذلك.. حيث ﴿إِنَّا لَجَٰعِلُونَ﴾ ومصيرون ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ من زينة وخلافه ﴿صَعِيدًا﴾ ترابًا ﴿جُرُزًا﴾ لا ينبت شيئًا.

هذا.. ولأنهم ليسوا عقلاء: فلم يفهموا ذلك، وفتنوا بزينة الحياة الدنيا ومادياتها، فكفروا، وصاروا أسوأ عملًا.

ولما سأل أهل الكفر النبي ﷺ عن أصحاب الكهف، قال تعالىٰ:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾

والمعنىٰ: لا تظن ﴿أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ﴾ الذين أقاموا فيه، مدة طويلة ﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾ اللوح الذي كتبت فيه أسماؤهم ﴿كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ الدالة علىٰ قدرتنا شيئًا ﴿عَجَبًا﴾ أي: غريبًا عجيبًا.

حيث إن هناك من الآيات الدالة علىٰ قدرتنا.. ما هو أعجب منه: كخلق السمٰوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب والنجوم، وغير ذلك.

اذكر يا محمد لقومك ملخص قصة أهل الكهف..

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾

أي: اذكر ﴿إِذْ أَوَى﴾ وقت أن لجأ ﴿ٱلْفِتْيَةُ﴾ الشباب، خائفين من الظلم والطغاة

﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ فرارًا بدينهم من بطش هؤلاء الكافرين.

﴿فَقَالُوا۟﴾ في مناجاة صادقة لله ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا﴾ أنت وحدك، وليس غيرك ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ من عندك ﴿رَحْمَةً﴾ تصلح بها شأننا، وتسترنا بها عن قومنا، وتحفظنا بها من الهلاك ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ وموقفنا هذا ﴿رَشَدًا﴾ حتىٰ نكون بسببه من الراشدين الناجين، فاستجبنا لدعائهم، وفعلنا ما فيه صلاح أمرهم.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: أنمناهم ﴿فِى ٱلْكَهْفِ﴾ لا يسمعون أحدًا، ولا يزعجهم أحد ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾.. حتىٰ مرَّ الزمان، وتغيرت الأحوال، وباد الطغاة، وتحسنت الظروف.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أيقظناهم من نومهم الطويل ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي: ليظهر ويشاهد، وليحصل للناس معرفة ﴿أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ المختلفين، ساعة بعثهم وتيقظهم ﴿أَحْصَىٰ﴾ إحصاءً دقيقًا ﴿لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ أي: مدة لبثهم، ومكثهم نيامًا في هذا الكهف.

دعك يا محمد من عناد قومك، واختلاف المختلفين حول مدة بقاء أهل الكهف في كهفهم.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾

أي: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ﴾ نتلو ﴿عَلَيْكَ﴾ في قرآن يتلىٰ، ويتعبد به إلىٰ يوم القيامة ﴿نَبَأَهُم﴾ قصتهم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق، الذي لا خفاء فيه، ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ كانوا من أشراف الناس، قابلين لمعرفة الحق، ﴿ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ وشهدوا له بالوحدانية، واعترفوا له بالقدرة، ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ أي: يقينًا وثباتًا علىٰ دينهم، وفي هذا دليل علىٰ أن الشباب هم أكثر الناس قبولًا للهدىٰ، واستعدادًا للعمل به.

ولمَّا كان هذا في أنفسهم فقط، فقد أظهروه، وقالوا كلمة الحق، وأعلنوا إسلامهم؛ حيث يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾

يعني: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قويناها على قول كلمة الحق ﴿إِذْ قَامُوا﴾ بين يدي ملكهم، حينما أمرهم بالسجود للأصنام .﴿فَقَالُوا﴾ له ثلاثة أشياء:

الأول: لن نسجد لها، وإنما نسجد لله ﴿رَبُّنَا﴾ الذي هو ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومن فيهما، وما فيهما، فهو المستحق لذلك وحده.

الثاني: ﴿لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ﴾ أي: غيره ﴿إِلَٰهًا﴾ نعبده.

الثالث: لو قلنا ذلك ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا﴾ أي: حينئذ قولًا ﴿شَطَطًا﴾ أي: بعيدًا عن الصواب، موغلًا في الكفر.

ولمَّا انصرفوا عن مجلس الملك، قالوا على قومهم ثلاثة أشياء أيضًا:

الأول: ﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا﴾ أخطؤوا خطأً كبيرًا و ﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ﴾ أي: غيره ﴿آلِهَةً﴾ يعبدونها.

الثاني: ﴿لَّوْلَا﴾ أي: هلَّا ﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِم﴾ على عبادتهم لأصنامهم ﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ بحجة واضحة، إنهم لن يأتوا بها أبدًا.

الثالث: لقد افتروا على الله الكذب ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ لا أحد أظلم منه، ولذلك: فهم أظلم الناس. ولذلك: ينبغي البعد عنهم..

وقد ابتعدوا عنهم بالفعل، ولمَّا ابتعدوا قال تعالى حكاية عنهم:

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾

أي: قال بعضهم لبعض: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ وما دمتم قد ابتعدتم عنهم، ﴿و﴾ تركتم ﴿مَا يَعْبُدُونَ﴾ من دون الله.. فإنهم لن يتركوكم وما أنتم عليه، شأن الطغاة مع أهل الحق دائمًا، وما دمتم قد فارقتموهم بأرواحكم في عبادتهم، ففارقوهم بأجسادكم في الإقامة معهم.

لذلك ﴿فَأْوُوا﴾ أي: التجئوا ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ البعيد عنهم، واختبئوا فيه؛ رجاء أن ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم﴾ في إقامتكم بالكهف ﴿مِّرْفَقًا﴾ تتعايشون عليه في حياتكم.

وهكذا، التجؤوا إلى الكهف واختبؤوا فيه بعيدًا عن قومهم وناموا. وأجاب الله

دعاءهم ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]. حيث قال:

﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾

يعني: ﴿وَتَرَى﴾ بعينك ﴿ٱلشَّمْسَ﴾ أنها آية من آيات الله أيها الإنسان.. !! حيث إنها كانت ﴿إِذَا طَلَعَت﴾ في الصباح ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ تميل ﴿عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ﴾ ناحية ﴿ٱلْيَمِينِ﴾.

﴿و﴾ كانت كذلك ﴿إِذَا غَرَبَت﴾ آخر النهار ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ تتركهم وتبتعد عنهم ﴿ذَاتَ﴾ ناحية ﴿ٱلشِّمَالِ﴾، ﴿و﴾ كانوا ﴿هُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في متسع من الكهف، مريح لهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي حدث آية ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ حيث أرشدهم ربهم إلىٰ هذا الغار الصحي، الذي جعلهم فيه أحياء، محفوظة أجسادهم من البلىٰ، طيلة هذه المدة.

وسبحان الله.. !! هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلىٰ الهداية من بين أقوامهم.. حقًّا.. إنه ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.

هـــذا. ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾

يعني: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾ لو رأيتهم ﴿أَيْقَاظًا﴾ أي: مستيقظين، ﴿و﴾ لكن ﴿هُمْ رُقُودٌ ۚ﴾ نيام في الحقيقة.

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ﴾ حماية لأجسادهم. ﴿وَكَلْبُهُم﴾ معهم في الغار ﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ﴾ وهو الباب، وكأنه يحرسهم بحكم طبيعته.. ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أيها الإنسان، وهم علىٰ هذا الحال. ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾

بعيدًا عنهم ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي: خوفًا، وكأن الله حماهم بالرعب من أن يدخل عليهم أحد لو اقترب منهم.

وناموا ـ على هذا الحال ـ مدة من الزمان طويلة، لم يُبل لهم فيها ثوب، ولم تتغير لهم فيها صفة، وكانت هذه ـ من الله تعالىٰ ـ آية.

وكما أنامهم الله عز وجل.. هذه المدة، وعلىٰ هذا الحال. أيقظهم من نومهم، وبعثهم إلىٰ الحياة مرة أخرىٰ. يقول الله تعالىٰ:

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾

يعني: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وكما أنمناهم.. أيقظناهم؛ إظهارًا لقدرتنا علىٰ البعث والإعادة للخلق مرة أخرىٰ. وكذلك ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟﴾ فيما ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عن حالهم ومدة نومهم في هذا الكهف.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ للباقين ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ في هذا الغار؟ ﴿قَالُوا۟﴾ له ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أي: مدة قليلة. وكأنه لم يقتنع.. وكأن إجابات غير ذلك طرحت. وأنهوا الإجابة علىٰ هذا السؤال بتفويض العلم فيما لا علم لهم به إلىٰ الله، حيث ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ فاتركوا العلم لله، ولا تختلفوا حول ما لا يفيد. خاصة، وأننا جياع بعد هذا النوم، ونحتاج إلىٰ الغذاء.

إذن.. ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾ بنقودكم ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ وكانت من الفضة ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾.. وليفعل الآتي:

أولًا: ﴿فَلْيَنظُرْ﴾ في محلاتها ﴿أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي: أحل، وأطيب، وأرخص.

ثانيًا: ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أي: بطعام رزقًا من الله تعالىٰ.

ثالثًا: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: ليكن هادئًا، وفي سرية وكتمان في تعاملاته، وذهابه وإيابه.

رابعًا: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ ولا يعلمن ﴿بِكُمْ﴾ حالًا أو مكانًا ﴿أَحَدًا﴾ حتىٰ لو انكشف أمره، وأمسكوا به، وحاولوا معرفة سره.

يلاحظ: أنها توصيات ذكية، حريصة، دقيقة، مهذبة، وفيها الكثير من أصول وقواعد التربية.

ثم عللوا هذا الحرص الشديد، والتوصيات الدقيقة بقولهم:

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾

يعني: إن هؤلاء القوم الذين يعبدون الأصنام، والذين فررنا منهم ﴿إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ يطلعون علىٰ حالكم، ويعرفون مكانكم يأخذوكم ثم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ أي: يتهموكم بالتطرف والإرهاب، ويقتلونكم رجمًا بالحجارة، انتقامًا منكم، ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ﴾ مرة أخرىٰ ﴿فِي مِلَّتِهِمْ﴾ بالترغيب، أو الترهيب.

﴿وَلَن تُفْلِحُوا﴾ في الفرار منهم مرة أخرىٰ ﴿إِذًا﴾ أي: إذا أمسكوا بكم ﴿أَبَدًا﴾؛ لأنهم سيعذبونكم حتىٰ الموت.

كذلك ﴿وَلَن تُفْلِحُوا﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿إِذًا﴾ أي: عدتم في دينهم مرة أخرىٰ ﴿أَبَدًا﴾ ولو كان بالإكراه علىٰ ترك الإسلام.

وفهم مَن سيذهب لإحضار الطعام هذه الوصية جيدًا، وصمم علىٰ التلطف مع القوم والاحتفاظ بالسر، مهما كان، ولكن؛ كان الزمان قد تغير وأهل الزمان قد تغيروا، وهم لا يشعرون؛ أليسوا نيامًا، مئات السنين..؟

علىٰ كل حال: اطلع القوم عليهم، وعرفوا سرهم، وكانوا مسلمين، وكانوا يختلفون في أمر البعث.

وجاء أهل الكهف في وقتهم، وكان بعثهم آية، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾

أي: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما هديناهم للإيمان، وأنمناهم في الكهف وبعثناهم ﴿أَعْثَرْنَا﴾ أطلعنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ قومهم والمؤمنين. وذلك ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟﴾ جميعًا ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ﴾. و ليعلموا كذلك ﴿أَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ وسيجازي كل إنسان فيها على ما قدم من خير أو شر.

وكان بعث أهل الكهف هذا، والعثور عليهم ﴿إِذْ﴾ أي: وقت أن كان قومهم ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ يختلفون، فيما ﴿بَيْنَهُمْ﴾ في أَمْرِهِمْ، وهو البعث.. هل سيكون، أو لا، وإذا كان فللأرواح فقط، أو للأرواح والأجساد معًا..؟

وكان العثور على أهل الكهف: ليرتفع الخلاف وليعلم الجميع، أن البعث للروح والأجساد معًا.

هذا.. ومات أهل الكهف ﴿فَقَالُوا۟﴾ أي: قومهم ﴿ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾ أي: سدوا عليهم كهفهم، واتركوهم على حالهم ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ وبحقيقة حالهم.

وهنا. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ أي: أمر القوم، وهم أصحاب الكلمة والنفوذ فيهم ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ يبنى على باب الكهف، يصلي فيه المسلمون.

وهكذا.. انتهى أمر أهل الكهف، وهو دليل واضح وحجة دامغة للماديين الملحدين، الذين ينكرون البعث والحشر والحساب.

وسيختلف الناس حولهم خلافات لا فائدة منها، ولا طائل تحتها..

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾

يعني: ﴿سَيَقُولُونَ﴾ أي: بعض الناس عن عدد أهل الكهف إنهم ﴿ثَلَٰثَةٌ﴾ فقط ﴿رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾. ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: البعض الآخر إنهم ﴿خَمْسَةٌ﴾ فقط ﴿سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

يقول ذلك هؤلاء وهؤلاء ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: بدون علم حقيقي، يفيد شيئًا.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي البعض الثالث: إنهم ﴿سَبْعَةٌ﴾ فقط ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

أقوال كثيرة لا علم بها عند قائليهم.

ولذلك ﴿قُل﴾ أنت أيها العاقل، الذي تفوض العلم إلى الله في مثل هذه الأمور الغيبية ﴿رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ وعددهم الحقيقي، حيث إنه ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ﴾ ويعلم عددهم ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ممن رآهم ساعة استيقاظهم من نومهم في كهفهم، وهذا القليل ذهب، وذهب معه العلم بعددهم، ولذلك أيضًا ﴿فَلَا تُمَارِ﴾ تجادل ﴿فِيهِمْ﴾ حالًا وعددًا ﴿إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي: بما جاء في القرآن عنهم فقط، ثم:

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم﴾ أي: أهل الكهف ﴿مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: لا تسأل عنهم أحدًا من أهل الكتاب، وفوض العلم فيهم إلىٰ الله تعالىٰ.

ولأن هذه القصة قد سأل المشركون النبي ﷺ عنها، بإيعاز من اليهود.. فقال لهم: «**غدًا أجيبكم**»، دون أن يعلق ذلك علىٰ مشيئة الله، بقوله: «إن شاء الله»، وتأخر الوحي عليه ﷺ في ذلك، ثم نزل، لذلك يقول الله عز وجل لنبيه، تأديبًا وتعليمًا لأمته:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾

في هذا النص ثلاثة آداب:

الأول: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾ تريد فعله ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ علىٰ وجه القطع واليقين ﴿إِلَّآ أَن﴾ تقول مع ذلك مؤمنًا به، أن ﴿يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ تحقيق ذلك، وإعانتي عليه.

الثاني: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ أي: قول «إن شاء الله» ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ ذلك عند قولك: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ متىٰ تذكرت، ولا تتركها أي: تعليق تحقيق الأمر علىٰ مشيئة الله أبدًا.

الثالث: ﴿وَقُلْ﴾ إذا نسيت شيئًا ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي﴾ سبحانه ﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا﴾ التصرف والنسيان ﴿رَشَدًا﴾ خيرًا وهدى.

وإذا كانوا قد اختلفوا حول مدة نومهم في الكهف وبقائهم فيه، فهذه هي المدة الحقيقة. قال الله تعالىٰ:

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾

أي: ناموا ﴿فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ﴾ من السنوات الشمسية، وهي تساوي ثلاثمائة وتسع سنين قمرية.

هذا هو الحق الذي لا مراء فيه.. **ولذلك**..

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾

يعني: ﴿قُلِ﴾ لكل المختلفين ﴿ٱللَّهُ﴾ وحده ﴿أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ في كهفهم، حيث إن ﴿لَهُۥ﴾ سبحانه ﴿غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي: علم ما غاب فيهما.

سبحان الله ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ﴾ أي: ما أبصره، وأسمعه، لكل ما غاب وما حضر..!!

﴿مَا لَهُم﴾ أي لأهل السمٰوات والأرض كلهم ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي: غيره ﴿مِّن وَلِىٍّ﴾ يتولىٰ أمورهم، ويصرف أحوالهم، كذلك ﴿وَلَا يُشْرِكُ﴾ سبحانه ﴿فِى حُكْمِهِۦٓ﴾ وقضائه وقدره ﴿أَحَدًا﴾ من خلقه.

وهكذا.. انتهت قصة أهل الكهف، وذكر اختلاف الناس حول موضوعهم، وقصتهم؛ وقد ظهر الحق فيها، وقيلت كلمة الفصل ممن ﴿لَهُۥ﴾ سبحانه ﴿غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾.

ولأن المشركين الذين سألوا عنها قالوا للنبي ﷺ: إن أردت أن نؤمن بك.. فاطرد مَن عندك من هؤلاء الفقراء، فقد قال الله لحبيبه عليه الصلاة والسلام: لا تلتفت إليهم، ولا تستجب لطلباتهم المتعنتة هذه..

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾

أي: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ﴾ تلاوة تدبر، وعمل، وتبليغ

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أحد أبدًا، فهو كتاب ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢].

﴿و﴾ في ذات الوقت ﴿لَن تَجِدَ﴾ لنفسك ولا لغيرك ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي: في غيره ﴿مُلْتَحَدًا﴾ أي: ملجأ تركن إليه، إن تركته وأهملته، وهذا **الأمر الأول** من الله تعالىٰ ـ بعد القصة ـ للنبي ﷺ.

الأمر الثاني:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾

يعني: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ احبسها وثبتها ﴿مَعَ﴾ هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ أي: مداومين على الدعاء والعبادة في كل وقت ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ ورضاه، سواء كانوا أغنياء أو فقراء، أصحاء أو ضعفاء.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: ولا تهملهم ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهي الاهتمام بأصحاب الشرف والثروة والزينة.

الأمر الثالث: فهو نهي للنبي ﷺ.

﴿وَلَا تُطِعْ﴾ هؤلاء في دعوتهم لك بترك الفقراء، وطردهم من مجلسك، ولا كل ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ وشغل عن الدين بالدنيا ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ وصار عبدًا له ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ أي: كانت أقواله، وأفعاله تفريطًا، وضياعًا في ضياع.

الأمر الرابع:

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

يعني: ﴿وَقُلِ﴾ لمن أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه، وكان أمره فرطًا، ولأصحابه، كذلك، هذا القرآن هو ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ وهو واضح، لا خفاء فيه، ولا غموض.

﴿فَمَن شَآءَ﴾ منكم أن يؤمن بحريته وكامل اختياره ﴿فَلْيُؤْمِن﴾، ﴿وَمَنْ شَآءَ﴾ أن يكفر بحريته، وكامل اختياره ﴿فَلْيَكْفُرْ﴾.

وبالمناسبة.. هذا جزاء الكافرين: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين بالله ورسوله ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي: سورها، من كل جانب.

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا﴾ من العذاب والعطش فيها ﴿يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ الزيت الحار الذي اشتد سواده من اللهب ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ عند اقترابه منها حقًّا. ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ شرابهم ﴿وَسَآءَتْ﴾ النار لهم ﴿مُرْتَفَقًا﴾ أي: دارًا يقيمون فيها.

ولمَّا ذكر تعالىٰ جزاء الكافرين ذكر عقيبه جزاء المؤمنين، فقال جل وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾

أي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسله وكتبه ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي أمر الشرع بها، والتي فيها صلاح البلاد، وإسعاد العباد.. نثيبهم ونجازيهم خير الجزاء حيث، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ وهؤلاء آمنوا، وأحسنوا العمل، فلا نضيع جزاءهم.

ولكن ما جزاؤهم هذا..؟ يقول رب العزة:

﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾

يعني: ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿لَهُمْ﴾ عند ربهم خمسة أشياء:

الأول: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي: دور إقامة لهم، لا يخرجون منها ولا يموتون فيها.

الثاني: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ﴾ أي من تحت غرفهم فيها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

الثالث: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ بالحلي، وهي ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾.

الرابع: ﴿وَيَلْبَسُونَ﴾ فيها ﴿ثِيَابًا خُضْرًا﴾ وهو أفضل الألوان، وأكثرها راحة للعين، وهذه الثياب ﴿مِن سُندُسٍ﴾ وهو الحرير الرقيق ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ كذلك، وهو الحرير السميك.

الخامس: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ منعمين، مستريحين، ممتعين.

حقًّا.. إنه ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ ثوابهم ﴿وَحَسُنَتْ﴾ الجنة والأنهار، والثياب، وكل ألوان النعيم لهم ﴿مُرْتَفَقًا﴾ أي: دارًا يقيمون فيها.

وبعد أن بين الله تعالىٰ جزاء الكافرين، وجزاء المؤمنين؛ ليكفر مَن يكفر عن بينة، ويؤمن مَن يؤمن عن بينة، يقول للنبي ﷺ: واضرب لهؤلاء الماديين الأمثلة التي تبين لهم ضلالهم، وتعينهم ـ لو يفهمونها ويعقلونها ـ علىٰ الهداية. حيث يقول تعالىٰ:

﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾

يعني: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ يفيدهم لو كانوا يعقلون، وهذا المثل هو ﴿رَّجُلَيْنِ﴾ أحدهما مادي كافر، والثاني مؤمن صالح.

﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ وهو الكافر ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ بستانين ﴿مِنْ أَعْنَـٰبٍ﴾ كثيرة، منوعة الأصناف ﴿وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾ وجعلنا النخيل علىٰ حواف البستانين، محيطًا بهما ﴿وَجَعَلْنَا﴾ كذلك ﴿بَيْنَهُمَا﴾ أي: بين البستانين ﴿زَرْعًا﴾ من جميع الأنواع، والألوان. حقًّا.. تنسيق جميل، ومنظر بديع.

وكذلك إنتاج غزير، حيث يقول تعالىٰ:

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۙ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾

نعم.. ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أعطت ثمارها كاملًا ﴿وَلَمْ تَظْلِم﴾ أي: تنقص ﴿مِّنْهُ شَيْـًٔا ۙ﴾ أي: لم تنزل بها الإصابات، ولم تعترها الآفات.

﴿و﴾ كان ريها مريحًا، وماؤها غزيرًا، حيث ﴿فَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ يروي هذه الزروع والأشجار .**أيضاً:**

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾

أي: ﴿وَكَانَ لَهُۥ﴾ غير هذه البساتين والزروع ﴿ثَمَرٌ﴾ من مال يستثمره في وحدة أخرىٰ غير الزراعة، كالتجارة، وغيرها أي: أوتي من كل زينة الحياة الدنيا، الشيء الكثير، وذات يوم، التقىٰ بصاحبه الرجل الآخر، المؤمن الصالح، وأخذه ودخل به بساتينه، يطلعه علىٰ ما فيها، ويحاوره ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ خمسة أشياء، كلها غرور بسبب المادة، وزينة الحياة الدنيا، وهي:

الأول: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا﴾ أي: فماذا أفادك الإيمان، غير الفقر.

الثاني: أنا ﴿أَعَزُّ﴾ منك ﴿نَفَرًا﴾ حولي، وهم كثر يخدمونني، أي: فماذا أفادك الإيمان، غير العزلة والوحدة؟

الثالث: ﴿و﴾ لمَّا ﴿دَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ مع صاحبه ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بكفره بالله ﴿قَالَ﴾ لصاحبه ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ حيث إنها من صنعي، وليست من صنع مَن تدعي أنه الإله الواحد.

الرابع: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ كما تدعي، ولذلك: فليس هناك حساب ولا عقاب، فلأتمتعن بالدنيا، كيفما أريد، ومتىٰ أريد.

الخامس: وعلى افتراض أن الساعة ستكون، وأرد إلىٰ ربي ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ حينئذ ﴿لَأَجِدَنَّ﴾ عنده ﴿خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ مرجعًا؛ لأن المنعم في الدنيا من أمثالي منعم في الآخرة، علىٰ عكس أمثالك.

حقًّا.. إن ذلك منتهىٰ الغرور، ومنتهىٰ المادية، ومنتهىٰ الكفر والاستهزاء.

ولم يتأثر صاحبه المؤمن، ولم يفقد ثقته بالله، ولم يبهر بما عليه هذا الكافر، بل:

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ خمسة أشياء أيضًا في الجواب علىٰ ما قال:

الأول: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ بالله الذي ﴿خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾؟

الثاني: ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ أنا مؤمن أنه سبحانه ﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ وحده ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾.

الثالث: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ رددت الفضل لله، و ﴿قُلْتَ﴾ عند إعجابك بها ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ كان، وما لم يشأ لم يكن، وقلت: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وأنت مؤمن به، لم تر فيها مكروهًا أبدًا.

الرابع: ﴿إِن﴾ كنت ﴿تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ فلا يغرنك هذا، وتحتقر غيرك؛ لفقره ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن﴾ يغير الحال، وتغيير الأحوال بيده، و﴿يُؤْتِيَنِ﴾ بقدرته ومشيئته ﴿خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ هذه.

الخامس: ﴿و﴾ أن يغير الحال أكثر وأكثر، فيدمر جنتك حيث ﴿يُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا﴾ أي: صواعق ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تحرقها وتحرق ما فيها ﴿فَتُصْبِحَ﴾ بعد ذلك ﴿صَعِيدًا﴾ أرضًا ملساء ﴿زَلَقًا﴾ لا يثبت عليها شيء. ﴿أَوْ﴾ حيث ﴿يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي: غائرًا في الأرض، لا يمكن الوصول إليه، ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ أي: حيلة أو وسيلة ترفعه بها.

وقد حقق الله توقعات هذا المؤمن..

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾

أي: هلكت ثماره وأمواله كلها ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أي: أحاط بها الهلاك من كل جانب وصُدِمَ الكافر !! ﴿فَأَصْبَحَ﴾ أي: صار ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ حسرة وندمًا عليها، و ﴿عَلَىٰ﴾ ضياع ﴿مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ من جهد وعرق ومال. ﴿وَهِىَ﴾ أمامه ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ خربة محترقة متهدمة ﴿وَيَقُولُ﴾ متحسرًا ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾، ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ﴾ في ذات الوقت ﴿فِئَةٌ﴾ من أهل أو ولد أو عشيرة ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ في محنته ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الذي لا ناصر سواه، ولا كاشف الضر غيره.

﴿و﴾ كذلك ﴿مَا كَانَ﴾ في نفسه ﴿مُنتَصِرًا﴾ أي: ممتنعًا عن انتقام الله منه، وإهلاك جنته.

وهكذا عرفنا من هذا المثل: أن النصرة للمؤمنين علىٰ الكافرين وذلك في الدنيا، وهي تكون أيضًا للمؤمنين علىٰ الكافرين في الآخرة، يقول الله تعالىٰ:

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

يعني: ﴿هُنَالِكَ﴾ في الآخرة تكون ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ بمعنىٰ النصرة للمؤمنين علىٰ الكافرين، أو ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ بمعنىٰ الملك، كقوله تعالىٰ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] ﴿لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ سبحانه، وثوابه ﴿هُوَ﴾ عز وجل ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ من ثواب غيره، لو كان ثواب غيره يبقىٰ، وعاقبته ﴿هُوَ﴾ ومكافأته ﴿خَيْرٌ عُقْبًا﴾ للمؤمنين فهل فهمتم هذا المثل أيها الكفار الماديون؟ وهل تستفيدون منه.. فتؤمنون..؟

علىٰ كل حال هذا مثل آخر.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾

يعني: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم﴾ مثلًا آخر يفيدهم لو كانوا يعقلون.. !! ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في بريقها أمامهم، وخداعهم بها، وغرورهم بمتاعها، وكفرهم بسببها، فهي ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلىٰ الأرض ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ وشرب منه، وازدهر به ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ ثم استوىٰ، ثم يبس، ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ متكسرًا ضعيفًا ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ﴾ فتفرقه ذات اليمين وذات الشمال، ولا يبقىٰ منه شيء.

وهكذا الدنيا، سريعًا ما يذهب خداعها، وينطفئ بريقها.

والعاقل مَن لا يفتن بها، ولا يكفر بسببها.

هذا، وإذا كان أعظم زينة في الحياة الدنيا هي المال والبنون، فهناك ما هو أعظم من ذلك ينبغي أن ينتبه له كل عاقل، فلنقرأ قوله تعالىٰ:

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾

أي: إذا كان ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ﴾ هما ﴿زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ عند بعضهم يسعدون به، ويفخرون، ويتجملون، فإن ﴿ٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ وهي الإيمان بالله، ورسوله، وفعل الطاعات ﴿خَيْرٌ﴾ من المال والبنون ﴿عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ ﴿وَخَيْرٌ﴾ عند الناس ﴿أَمَلًا﴾ يأملون في نفعه ونتائجه، من نفع المال والولد.

ثم تعرض الآيات الكريمة أمام هؤلاء الماديين الكافرين، بعض مشاهد يوم القيامة تفيدهم لو كانوا يعقلون.. !! حيث يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ اذكر ﴿يَوْمَ﴾ القيامة حين ﴿نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ من أماكنها، وتصير هباءً منبثًا، وتزول نهائيًا، ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ﴾ وقتذاك ﴿بَارِزَةً﴾ ظاهرة، ليس عليها شيء من جبل، أو شجر، أو أي علامة.

﴿و﴾ قد ﴿حَشَرْنَٰهُمْ﴾ جميعًا، الإنس والجن، والمؤمن والكافر ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾ أي: نترك ﴿مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ دون أن نحشره في هذا اليوم.

وبعد الحشر ـ نجانا الله وإياكم ـ يكون العرض، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾

أي: ﴿وَعُرِضُوا۟﴾ جميعًا ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ أي: مصطفين، ظاهرين، لا يختفي منهم أحد، ويقال للكافرين من باب التقريع لهم، والسخرية بهم: ﴿لَقَدْ﴾ بعثناكم، و﴿جِئْتُمُونَا﴾ فرادىٰ، ليس معكم مال ولا ولد، ولا نصير، ولا معين ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ﴾ ضعافًا، لا تملكون شيئًا.

﴿بَلْ﴾ أكثر من هذا أنكم ﴿زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ تبعثون فيه؛ لأنه لا بعث بالمرة، كما كنتم تدعون.

ثم يوضع الكتاب للمؤمن في يمينه، وللكافر في شماله:

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

نعم، ﴿و﴾ إذا ﴿وُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾:

أولًا: ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين من جزاء ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ من كفرهم، وأعمالهم السيئة التي عملوها.

ثانيًا: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ تحسرًا ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ يا فضيحتنا، وخسارتنا، وهلاكنا ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذي سجلت فيه أعمالنا ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ﴾ علينا.

ثالثًا: ﴿وَوَجَدُوا۟﴾ بأنفسهم ﴿مَا عَمِلُوا۟﴾ ـــه ﴿حَاضِرًا ۗ﴾ مسجلًا في هذا الكتاب، دون نقصان له، أو زيادة عليه.

﴿و﴾ هكذا كتبت أعمالهم، وهكذا يكون عقابهم؛ حيث ﴿لَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

فهل فهمتم أيها الكفار الماديون هذه المشاهد..؟ وهل تستفيدون من عرضها عليكم فتؤمنون..؟

إذا كان هؤلاء الماديون يفتخرون ويتكبرون على فقراء المسلمين، بأموالهم، وأولادهم، وأعوانهم.. !! فإن إبليس ـ من قبلهم ـ قد افتخر وتكبر على آدم عليه السلام، بأصله، ونسبه، وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]. فلما افتخر بذلك، وتكبر: فسق عن أمر ربه، وهلك، وهؤلاء يفتخرون ويتكبرون: ويفسقون عن أمر ربهم، وسيهلكون، يقول الله سبحانه:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ اذكر لهم ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ جميعهم ﴿ٱسْجُدُواْ﴾ سجود تحية وتكريم ﴿لِأَدَمَ﴾.. ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ كلهم لآدم؛ طاعة لأمر الله ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ لم يسجد؛ لأنه كان من الجن ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: خرج عن طاعته.

ويلاحظ: أن إبليس ليس من الملائكة، وإنما شمله الأمر، لأنه كان معهم؛ بدليل: أن له ذرية ـ بنص الآية ـ والملائكة لا ذرية لهم، وهو مخلوق من نار، والملائكة من نور.

ثم يقول ربنا للماديين الكافرين: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ﴾ لكم ﴿مِن دُونِى﴾ تطيعونهم وتفعلون ما يأمرونكم به من الفساد والمعاصي ﴿وَهُمْ لَكُمْ﴾ في ذات الوقت ﴿عَدُوٌّ﴾ دائم.

حقًّا.. ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين اتخذوا إبليس عن الله ﴿بَدَلًا﴾.

فهل فهمتم أيها الكفار الماديون موقف إبليس، وضياع حاله..؟ وهل تعتبرون بما حدث منه، وله، فتؤمنون..؟

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى: هذا الذي اتخذتموه وذريته أولياء من دوني تعبدونهم وتطيعونهم:

﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾

يعني: كيف تتخذون إبليس وذريته أولياء من دوني وهم عبيد أمثالكم، لا يملكون شيئًا، و ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لعدم حاجتي إليهم فضلًا أنهم كانوا حين خلقهم في العدم، ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أيضًا يستطيعون، بل ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ﴾ لكم من إبليس وذريته ﴿عَضُدًا﴾ مساعدًا ومعينًا لي في أي شيء، فكيف تتخذونهم إذًا آلهة لكم وأولياء؟

هؤلاء الذين ليس لهم علاقة بخلق السمٰوات والأرض وأنفسهم، الذين عبدتموهم من دون الله؛ اعلموا جيدًا أنه لا حول لهم ولا قوة في الآخرة، كذلك يقول الحقُّ سبحانه:

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾

يعني: ﴿وَيَوْمَ﴾ القيامة ﴿يَقُولُ﴾ الله تعالى للكفار ﴿نَادُوا شُرَكَآءِيَ﴾ أي: إبليس وذريته، والأصنام، وغيرها ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ في الدنيا أنهم آلهة؛ لينقذوكم مما أنتم فيه من العذاب، فينادونهم ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لعجزهم عن ذلك.

﴿و﴾ هكذا ﴿جَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ وبين آلهتهم المزعومة ﴿مَّوْبِقًا﴾ حاجزًا من الهلاك والخيبة والخسران.

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

أي: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ من بعيد، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢] ﴿فَظَنُّوٓا﴾ وتيقنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ أي: مخالطون لها، وواقعون فيها.

﴿و﴾ يبحثون عن مهرب لهم، ولكن ﴿لَمْ يَجِدُوا عَنْهَا﴾ وعن الوقوع فيها ﴿مَصْرِفًا﴾ يعدلون سيرهم إليه وهروبهم فيه؛ لأن الملائكة تسوقهم إلىٰ جهنم سوقًا، أَبَعْدَ كل هذا البيان.. تتخذون إبليس وذريته، وآلهتكم المزعومة أولياء من دوني..؟!! فكروا في ذلك إن كنتم تعقلون.. !!

وبعد هذه المناقشات الطويلة مع الكفار، وبعد هذه الأدلة الواضحة علىٰ فساد معتقداتهم ومواقفهم، يبين العليم الحكيم نعمة الله علىٰ خلقه، وطبيعة بعضهم التي تحول بينهم وبين الإفادة من هذه النعمة ـ وهي القرآن ـ فيقول جل وعلا:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾

يعني: ﴿وَلَقَدْ﴾ أنعمنا علىٰ الإنسان؛ حيث ﴿صَرَّفْنَا﴾ بيّنا وكررنا ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ﴾ جميعًا ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ﴾ يفيدهم، ويوصلهم إلىٰ الإيمان بالله.

﴿و﴾ لكن ﴿كَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ أي: مجادلًا، ومعاندًا، حتىٰ في الحق الواضح، بما يضر به نفسه، والجدال أوضح صفاته.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾

أي: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ الذين كفروا ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ بالله ﴿إِذْ جَآءَهُمُ﴾ لمَّا جاءهم ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ وهو القرآن أو النبي ﷺ ﴿و﴾ منعهم أن ﴿يَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ كذلك، علىٰ ما كان منهم؛ إلَّا عنادهم، وجدالهم، واستمرارهم علىٰ هذا العناد والجدال، حتىٰ ﴿تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهي الإهلاك الكامل في الدنيا ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي: أنواعًا متعددة متلاحقة.

ويؤكد ربنا عز وجل علىٰ طبيعة الجدال في الإنسان، فيقول تبارك وتعالى:

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾

يعني: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ من عندنا إلىٰ الناس ﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ للمؤمنين ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ للكافرين.. ليسعد المؤمنون، ويؤمن الكافرون طواعية واختيارًا.

﴿و﴾ لكن ﴿يُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جدالًا ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الذي يتمسكون به ﴿لِيُدْحِضُواْ﴾ ويبطلوا ﴿بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ وهو القرآن، وما جاء به.

﴿و﴾ هكذا ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى﴾ من دلائل الإيمان ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ به العذاب ﴿هُزُوًا﴾ استهزاءً وسخرية .حقًّا..

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾

بعد أن بيَّن الله عز وجل جدال الكافرين للرسل، وعنادهم لقبول الحق؛ بين هنا صفاتهم الموجبة للخزي والخسران علىٰ النحو التالي:

الأولىٰ: أنهم أظلم الظلمة ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ الدالة علىٰ الإيمان ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ ولم يعمل عقله فيها، ولم يستجب لها، ﴿وَنَسِىَ﴾ في ذات الوقت ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الآثام والمعاصي.

الثانية: أنهم على قلوبهم أغطية ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية تمنعهم من ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: القرآن، حتى ولو فهموه لا يعملون به.

الثالثة: أنهم في آذانهم صم.. إنا جعلنا ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: ثقلًا وصمماً فلا يسمعونه سماع تدبر يفيدهم.

الرابعة: أنهم لا يستجيبون أبدًا للهداية ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ﴾ وهو الإيمان، مهما دعوتهم ﴿فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

لا ينبغي أن يظن أحد أن هذه الحواجز التي تمنعهم من الهداية ظلم لهم، وحاشا لله من ذلك.. بل هم الذين اختاروا عدم الاهتداء بمحض رغبتهم وكامل اختيارهم، ومع ذلك، باب التوبة مفتوح، وعدم المعاجلة بالعقوبة قائم، حيث يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾

يعني: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ﴾ لمن تاب، على ما سبق ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ بالعفو عنه، والهداية له.. ومن رحمته لعباده: أنه ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم﴾ ويعاقبهم ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من المعاصي ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ في الدنيا، بل قد يعفو عن المؤمنين عفوًا كاملًا فيها، ولكن لا يهمل سبحانه عقاب الكافرين، وإن أمهلهم وأخرهم، ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ يعاقبون فيه، وهو يوم القيامة، الذي ﴿لَّن يَجِدُوا﴾ ساعتها ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: غير العذاب ﴿مَوْئِلًا﴾ أي: ملجأ يهربون إليه.

ألا يعتبر هؤلاء الكفار بمن سبقهم من أهل القرى السابقة الكافرة ؟!! أتعرفون ما خبرها..؟

﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ أهل ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ السابقة وهم عاد وثمود، وغيرهما ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ في الدنيا ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ بكفرهم ﴿وَجَعَلْنَا﴾ كذلك ﴿لِمَهْلِكِهِم﴾ هذا ﴿مَّوْعِدًا﴾ لا يستأخرون عنه، ولا يستقدمون.. وقد حدث.

وعلى ذلك، فليعتبروا بهم، ولا يغتروا بتأخير العذاب عنهم، فهلَّا يفعلون.. وهل يؤمنون..؟ هذا ويسوق الله تعالى: قصة ثالثة، وهي: **قصة موسى عليه السلام والخضر.** وكأنه

سبحانه يرد بها **أولاً** علىٰ الكفار، الذين افتخروا علىٰ فقراء المسلمين، ويقول لهم: هذا موسى نبي أوتي علمًا وفضلًا وعلوًّا، ومع ذلك لم يتعال علىٰ أن يتواضع.. فتواضعوا.

وكأنه ثانيًا، يرد بها الكفار الذين تكبروا علىٰ الأنبياء وامتنعوا عن الإيمان، وتشبهوا بإبليس، الذي تكبر علىٰ أمر الله، وامتنع عن السجود لآدم عليه السلام؛ وأما موسىٰ: فلم يتكبر أن يتعلم ممن هو دونه. فلا تتكبروا.. وتواضعوا والقصة ـ في ذات الوقت ـ تربية للمسلمين، وتعليم، يقول رب العزة تبارك وتعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ لقومه لمَّا سألوه عن أعلم الناس، فقال: أنا، فعتب الله عليه، إذْ لم يرد العلم إلىٰ الله، وأوحىٰ إليه: إن لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم، وعرّفه كيف يصل إليه، وبدأ موسىٰ عليه السلام رحلة البحث عن هذا العبد الصالح، الذي هو أعلم منه؛ ليتعلم منه، وقال موسىٰ عليه السلام ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ الذي كان يسير معه ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ لا أزال أمشي ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ﴾ أصل إلىٰ ﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ هذا، وهو المكان، الذي فيه هذا العبد الصالح العالم ﴿أَوْ أَمْضِىَ﴾ سائرًا إليه ﴿حُقُبًا﴾ زمنًا طويلًا.

وسارا، موسىٰ وفتاه للوصول إلىٰ المطلوب..

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾

يعني: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ أي: وصلا موسىٰ وفتاه ﴿مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي: مجمع البحرين، وهو المكان المطلوب.. ناما و ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ وتسرب حوت السمك، الذي كان معهما، الذي كان تسربه وضياعه منهما علامة علىٰ هذا المكان ﴿فَٱتَّخَذَ﴾ أي: الحوت ﴿سَبِيلَهُۥ﴾ طريقه ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ ونزل إليه، وجعل الله الماء حول الحوت ﴿سَرَبًا﴾ أي: نفقًا في الماء، أي: تجمد الماء من حوله وصار كالنفق، ووقف الحوت ـ بذلك ـ في مكانه.

واستيقظ موسىٰ وفتاه من نومهما، وتابعا سيرهما، وقد نسيا حوتهما.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾

أي: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ المكان المطلوب، وهو مجمع البحرين، وهو الذي فقد فيه الحوت ونسياه، أحسا بالتعب والجوع، وهنا ﴿قَالَ﴾ موسىٰ ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ لنأكل ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ أي: تعبًا.

وبدأ الغلام يحضر الغداء: فاكتشف فَقْد الحوت، فماذا فعل..؟

﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ الفتىٰ لموسىٰ عليه السلام ﴿أَرَءَيْتَ﴾ أي: أتذكر ﴿إِذْ أَوَيْنَآ﴾ لجأنا ﴿إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ لنستريح عندها فيما سبق من طريقنا ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ هناك ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ﴾ فاعذرني، ولا تؤاخذني.

﴿و﴾ هكذا ﴿ٱتَّخَذَ﴾ الحوت ﴿سَبِيلَهُۥ﴾ طريقه ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ اتخاذًا ﴿عَجَبًا﴾ لم يشعرا به، حين تفلت منهما بقدرة الله تعالىٰ.

ولم ينفعل موسىٰ، ولم يغضب من فتاه، بل:

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ موسىٰ لفتاه ﴿ذَٰلِكَ﴾ المكان هو ﴿مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ﴾ ونبحث عنه.

﴿فَٱرْتَدَّا﴾ ورجعا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ أي: آثار أقدامهما ﴿قَصَصًا﴾؛ ليتوصلا إلىٰ نفس المكان. وعادا، ووصلا..

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾

أي: ﴿فَوَجَدَا﴾ في هذا المكان، عند مجمع البحرين ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهو الخضر عليه السلام.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾ بأدب وتواضع ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ أي: هل تأذن لي أن أُجعل تبعًا لك، وذلك: منتهي المبالغة في التواضع والتعظيم، وذلك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ وأتعلم منك ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ وعلمك الله ﴿رُشْدًا﴾ أرشد به، وأزداد علمًا، حيث إن الزيادة في العلم مطلوبة؟

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ هذا العبد العالم لموسىٰ ﴿إِنَّكَ﴾ إن اتبعتني ورأيت فعلي ﴿لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ﴾ علىٰ ما أفعل ﴿صَبْرًا﴾.

﴿و﴾ لك العذر.. إذْ ﴿كَيْفَ تَصْبِرُ﴾ وتسكت ﴿عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ من الأفعال العجيبة الغريبة، التي سوف تراها ﴿خُبْرًا﴾ وعلمًا؟

ولحرص موسىٰ عليه السلام، ولأدبه، وتواضعه..

﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾

لاحظوا قدَّم موسىٰ عليه السلام مشيئة الله؛ ليستعين بها علىٰ تحمل الصبر علىٰ ما سيراه من عجائب الأمور، كما فهم من هذا الكلام.

﴿قَالَ﴾ موسىٰ له ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ علىٰ قبول ما تفعل، ولا أفهم له علة، حتىٰ تخبرني، وتعلمني، وأفهم، ﴿و﴾ حتىٰ لو أمرتني بفعل ما لم أعرف له علة ستجدني ﴿لَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ إن شاء الله، حتىٰ أعرف، وأتعلم.

وأراد الخضر أن يثبت هذا الاتفاق، وأن يؤكد عليه.. حيث:

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ الخضر لموسىٰ: إذًا ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى﴾ وأردت العلم ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾ أفعله، ولا تفهم له علة ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ﴾ في الوقت المناسب ﴿ذِكْرًا﴾ تستريح إليه، وتتعلم منه.

ووافق موسىٰ عليه السلام علىٰ ذلك.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾

يعني: ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ مع بعضهما البعض، يمشيان على ساحل البحر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ﴾ التي مرت بهما، فلما ركباها ﴿خَرَقَهَا﴾ الخضر، بخلع لوح أو لوحين منها، من جهة الماء، وهنا لم يتمالك موسىٰ نفسه، ولم يصبر أمام هذا التخريب الذي سيغرق السفينة ومن فيها، إذْ ﴿قَالَ﴾ للخضر على الفور ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ﴾ أي: فعلت ﴿شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ منكرًا؟ وهو هذا الذي فعلت.

وذكَّره الخضر بالعهد الذي كان..

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ له ﴿أَلَمْ أَقُل﴾ لك سابقًا ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ﴾ على ما أفعل ﴿صَبْرًا﴾..؟

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ موسىٰ للخضر معتذرًا: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أي: غفلت عنه من التسليم لك، وترك الإنكار عليك فيما تفعل، ولا أفهم له سرًّا.

﴿و﴾ كذلك ﴿لَا تُرْهِقْنِي﴾ وتكلفني ﴿مِنْ أَمْرِي﴾ وصحبتي لك ﴿عُسْرًا﴾ ومشقة، بل عاملني بالعفو واليسر. وقبل الخضر اعتذاره وسارا معًا.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾

أي: ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ بعد خروجهما من السفينة، يمشيان ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا﴾ لم يبلغ حد التكليف، يلعب مع الصبيان؛ أمسك الخضر به ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ ذبحاً، وهكذا لم يتمالك موسىٰ نفسه، ولم يصبر أمام هذا العدوان الظاهر على هذا الغلام بإزهاق روحه. إذْ ﴿قَالَ﴾ للخضر على الفور: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ﴾ أي: طاهرة ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: لم تقتل أحدًا..؟ ثم قال: ﴿لَقَدْ جِئْتَ﴾ فعلت ﴿شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ منكرًا، وهو هذا الذي فعلت. فأجابه الخضر:

﴿۞قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ له ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾ مرتين سابقتين ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ﴾ علىٰ ما أفعل ﴿صَبْرًا﴾..؟

واعترف موسىٰ أن ما يحدث أمامه فوق طاقته، وأعلىٰ من إدراكه، فوق أنه لا يصبر علىٰ عدم معرفة علته، ولا يتحمل صبرًا علىٰ فعله، ولكنه سيجاهد نفسه ليتعلم ولذلك:

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ موسىٰ عليه السلام للخضر معترفًا بعدم صبره علىٰ ما يرىٰ، وموافقًا علىٰ تنفيذ اتفاقه السابق ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ [الكهف: ٦٩]. قال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي: بعد هذه المرة ﴿فَلَا﴾ عليك أن ﴿تُصَٰحِبْنِي﴾ حيث إنك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي﴾ من قبلي ﴿عُذْرًا﴾ في مفارقتك لي. ووافق الخضر..

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾

يعني: ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ يمشيان ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ وكان بعد الغروب في ليلة باردة ممطرة، وأحسا بالبرد والجوع، فطلبا الضيافة و ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾. ولكن أهل هذه القرية كانوا بخلاء ﴿فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾. وسارا خارجين من القرية ﴿فَوَجَدَا فِيهَا﴾ أي: في بيت من بيوتها ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي: مائلًا للسقوط والهدم، وهنا تقدم الخضر إليه ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ ورممه، وأصلحه، حتىٰ لا يسقط، ولم يتمالك موسىٰ نفسه، ولم يصبر أمام هذا الفعل الحسن، الذي لا يستحقه أهل هذه القرية أن يفعل لهم دون مقابل: إذْ ﴿قَالَ﴾ للخضر بكل أدب، بعبارة فيها تحميس علىٰ أخذ الأجرة: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

وفي هذه اللحظة، وعلىٰ الفور..

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ الخضر لموسى: ﴿هَٰذَا﴾ وقت ..﴿فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ﴾ وكان الفراق، وكانت نهاية الصحبة الصالحة.

يقول نبينا ﷺ: «**رحم الله أخي موسىٰ، استعجل فقال ذلك** ـ أي: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي ۖ﴾ [الكهف: ٧٦] ـ **ولو لبث مع صاحبه؛ لأبصر أعجب الأعاجيب**».

وقبل أن يفترقا الخضر وموسىٰ، قال الخضر لموسىٰ: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ أي: تفسير ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ﴾ من الأمور التي حدثت أمامك ﴿صَبْرًا﴾، ولم تعرف علة ولا تفسيرًا.

الأمر الأول.. ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾

أي: ﴿أَمَّا﴾ أمر ﴿السَّفِينَةُ﴾ التي خرقتها ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ﴾ عليها ويرتزقون منها ﴿فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ فقط، وما أردت إغراقها؛ حيث ﴿كَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ﴾ كافر وظالم ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحة عند غيره ﴿غَصْبًا﴾ عنهم ولو رآها قبل أن أخرقها لأخذها منهم، وحرمهم منها رغمًا عنهم. وكان ذلك بأمر الله تعالىٰ.

الأمر الثاني.. ﴿وَأَمَّا الْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾

يعني: ﴿وَأَمَّا﴾ أمر ﴿الْغُلَٰمُ﴾ الذي قتلته ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ وأما هو فقد طبع كافرًا ﴿فَخَشِينَآ﴾ إن عاش ﴿أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ أي: يوقعهما لمحبتهما له، ويكلفهما ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾، ﴿فَأَرَدْنَآ﴾ بإذن الله وأمره أن نقتله حتىٰ ﴿يُبْدِلَهُمَا

﴿رَبُّهُمَا﴾ ولدًا ﴿خَيْرًا مِّنْهُ﴾ لهما ﴿وَأَقْرَبَ﴾ منه لهما ﴿رُحْمًا﴾ أي: برًّا بهما، وعطفًا عليهما، وكان ذلك بأمر الله تعالىٰ.

الأمر الثالث.. ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

يعني: ﴿وَأَمَّا﴾ أمر ﴿ٱلْجِدَارُ﴾ الذي أصلحته: فقد توافرت فيه أربعة أمور:

أولًا: أنه ﴿كَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى﴾ هذه ﴿ٱلْمَدِينَةِ﴾ وهي القرية، التي رفض أهلها ضيافتنا.

ثانيًا: أنه ﴿كَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ ولو وقع الجدار لضاع عليهما ما في هذا الكنز.

ثالثًا: أنه ﴿كَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ والله تعالىٰ يحفظ العبد الصالح في نفسه وولده.

رابعًا: أنه ﴿أَرَادَ رَبُّكَ﴾ لهذين الغلامين ﴿أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ أي: قوتهما، ﴿وَيَسْتَخْرِجَا﴾ من تحت هذا الجدار بأنفسهما ﴿كَنزَهُمَا﴾ وذلك ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ﴾ بهما.

ثم قال له في النهاية، وتعليقًا علىٰ هذه الأمور السابقة، وتعليمًا أن الأمر كله لله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ﴾ أي: كل ما سبق من: خرق السفينة، وقتل الغلام، وإصلاح الجدار ﴿عَنْ أَمْرِى ۚ﴾ واختياري، بل بأمر ربي، وتكليفه لي بذلك.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي قلت ﴿تَأْوِيلُ﴾، وتفسير ﴿مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ قبل ذلك.

ذكرنا سابقاً أن اليهود قالوا للمشركين: اسألوا محمدًا عن ثلاثة أشياء، فإن أجاب عن اثنين، ولم يجب عن الثالثة، فاعلموا أنه نبي؛ اسألوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، واسألوه عن رجل طوَّف البلاد وشرّق فيها وغرّب، واسألوه عن الروح. وقد نزل القرآن بإجابة هذه الأسئلة، فقال عن هؤلاء الفتية، ما ذكر في قصة أصحاب الكهف، وقال عن الروح: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]. وأما عن إجابة السؤال الثالث، فقد قال تعالىٰ:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ لمن يسألونك عن ذي القرنين ﴿سَأَتْلُوا۟﴾ وأقص ﴿عَلَيْكُم مِّنْهُ﴾ من حاله ﴿ذِكْرًا﴾ أي: بعض أخباره.

ويلاحظ أن القرآن الكريم لا يذكر شيئًا عن شخصية ذي القرنين، ولا عن زمانه، ولا عن مكانه، إذْ لا حاجة إلىٰ ذلك حيث إن المقصود: هو العبرة من هذه القصة، والعبرة تتحقق بدون ضرورة لمعرفة التفاصيل عن الشخصية، أو الزمان، أو المكان لها.

علىٰ أية حال، من أخبار ذي القرنين التي يذكرها القرآن ما يقوله رب العزة:

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ﴾ السير ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حينما يريد ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ يحتاج إليه ﴿سَبَبًا﴾ أي: طريقًا يوصله إلىٰ تحقيق ما يريد منه من الجنود، والآلات، وغير ذلك ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: أخذ بالأسباب، واستعمل الوسائل التي مكنه الله منها، للوصول إلىٰ ما يريد.

فلما أراد الوصول إلىٰ مغرب الشمس، أخذ في الأسباب، لذلك:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾

أي: سار نحو المغرب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ﴾ آخر العمران من الأرض عند المحيط، ورأىٰ ﴿مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: موضع غروبها فيما تراه عينه، و ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: كأنها تختفي في عين طينية سوداء، ﴿و﴾ في هذا المكان ﴿وَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ أي: أمة من الأمم كافرة، وحدث بينه وبين هؤلاء القوم ما مكنه الله به منهم، وغلبه عليهم، وحكمه فيهم، ثم قال تعالىٰ: ﴿قُلْنَا﴾ له: ﴿يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ أنت مخير فيهم بين أمرين ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ مَن ظل منهم علىٰ الكفر ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ بالعفو عنهم.

وكان جواب ذي القرنين علىٰ هذا التخيير: أنه..

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾

يعني: اختار ذو القرنين المعاملة بالعدل مع الكفار، حيث ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: كفر، وبقي على كفره، وآذى العباد، وأفسد البلاد ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ في يوم القيامة ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: فظيعًا.

ثم أضاف قائلًا: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ بالله ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ موافقًا لشرع ربه، وأسعد العباد، وأصلح البلاد ﴿فَلَهُۥ﴾ عند ربه ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وهي الجنة ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ﴾ نحن ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي: من شرع الله الذي أمرنا به ﴿يُسْرًا﴾ أي: ما يناسب طاقته، ولا يشق عليه.

يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾

أي: أخذ في الأسباب، واستعمل الوسائل، التي مكنه الله منها؛ للوصول إلى ما يريد. فلما أراد أن يصل إلى مطلع الشمس أخذ في الأسباب لذلك، وسار..

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾

أي: سار نحو الشرق ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ وهو الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولًا من العمران، وفي هذا المكان ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ﴾ أي: تشرق ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ على أمة من الأمم ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي: بينهم وبين الشمس ما يسترهم من حرها من البيوت، أو الأشجار، أو الملابس.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: حدث بينه وبينهم ما حدث بينه وبين أهل المغرب، وحكم فيهم، كما حكم في أهل المغرب، ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من الجنود، والآلات، وأسباب القوة والنصر ﴿خُبْرًا﴾ معرفة وعلمًا، حيث نحن الذين مكنَّا له في الأرض، وآتيناه من كل شيء سببًا.

وبعد ذلك يقول الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾﴾

أي: أخذ في الأسباب، واستعمل الوسائل، التي مكنه الله منها، للوصول إلىٰ ما يريد. فلما أراد أن يصل إلىٰ مكان ثالث وهو (بين السدين) أخذ في الأسباب لذلك:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾

أي: سار نحو الشمال ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ﴾ الموضع الموجود ﴿بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ وهما جبلان عظيمان متقابلان يسدان الأفق بضخامتهما، بينهما ممر ضيق، و ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ يعني: أمام هذين الجبلين ﴿قَوْمًا﴾ أمة من الأمم، منعزل أفرادها عن الناس، ولذلك ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لأحد، ولا يفقه منهم أحد قولًا، إلَّا بمشقة وعسر، ومترجم.

فلما اقترب منهم، واختلط بهم، سمع منهم، وفهم بصعوبة عنهم ما يقولون، ماذا قالوا..؟

﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾

يعني: ﴿قَالُوا۟﴾ له ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ قبيلتان كبيرتان، تقيمان خلف هذين الجبلين، وهم جميعًا ﴿مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالنهب والبغي عند خروجهم إلينا من هذا الممر الذي بين الجبلين.

﴿فَـ﴾ ما رأيك. .﴿هَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أجرًا ومكافأة ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ﴾ بما أوتيت من علم وقوة وإمكانات ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ يحمينا منهم، ويبعد عنا أذاهم..؟

ماذا فعل ذو القرنين..؟

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ لهم ذو القرنين: لا أريد منكم أجرًا؛ حيث إن ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى﴾

من المال والقوة ﴿خَيْرٌ﴾ لي، مما عندكم من أجر، ومع ذلك سأجعل بينكم وبينهم سدًّا، تبرعًا وتطوعًا.

﴿فَأَعِينُونِي﴾ وساعدوني ﴿بِقُوَّةٍ﴾ فيما أطلبه منكم لهذا العمل، وبذلك ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أي: سدًّا حاجزًا منيعًا.

ثم وضح لهم مطالبه، حيث قال لهم:

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾

يعني: قال لهم ثلاثة أشياء:

الأول: ﴿ءَاتُونِي﴾ هاتوا لي ﴿زُبَرَ﴾ قطع ﴿ٱلْحَدِيدِ﴾ فجاءوه بها، وصار يرصها رصًّا فوق بعضها البعض، في هذا الممر الضيق بين الجبلين العظيمين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ﴾ بها ﴿بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ جانبي الجبلين.

الثاني: أنه أوقد نارًا على قطع الحديد هذه، و ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿ٱنفُخُوا۟﴾ في هذه النار، المشتعلة في قطع الحديد وظلوا ينفخون ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ انصهر الحديد و﴿جَعَلَهُۥ﴾ هذا النفخ فيه ﴿نَارًا﴾ أي: كالنار. كان الأمر التالي، وهو:

الثالث: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿ءَاتُونِي﴾ النحاس المذاب ﴿أُفْرِغْ عَلَيْهِ﴾ أي: على هذا السد المبني من قطع الحديد، الذي انصهر، ﴿قِطْرًا﴾ وهو هذا النحاس المذاب، حتى تتماسك قطع الحديد هذه.

وهكذا بنى السد، على يأجوج ومأجوج.

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾

يعني: لمَّا بنى السد على هذا النحو، ما استطاعت يأجوج ومأجوج ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: يصعدوا فوقه؛ لأنه عال جدًّا، وأملس جدًّا ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ أيضًا ﴿لَهُۥ نَقْبًا﴾ أي: خرقًا؛ لقوته، وصلابة مادته.

وبذلك: حبسوا وراء الجبلين من جهة، وسدت عليهم الثغرة التي كانت بينهما من جهة أخرى، فلا يستطيعون المرور من فوق، ولا من تحت.

وبعد أن تم البناء..

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين ﴿هَٰذَا﴾ التوفيق في بناء السد ﴿رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ﴾ بالناس، حيث حال بينهم وبين أذىٰ يأجوج ومأجوج لهم.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ بخروج يأجوج ومأجوج ﴿جَعَلَهُ﴾ سبحانه ﴿دَكَّاءَ ۖ﴾ أي: مدكوكًا، مستويًا بالأرض، فيخرجون منه ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي﴾ بخروجهم هذا ﴿حَقًّا﴾ لا يتخلف، وهكذا.. انتهت قصة ذي القرنين.

بعد أن قال رب العزة في أول السورة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾ أي: نختبر أهل الأرض ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].. وبعد أن ذكر قصة أصحاب الكهف، وقصة صاحب الجنتين، ومثال الدنيا، وقصة موسىٰ والخضر، وقصة ذي القرنين.. وكل ذلك يذكر بأمر الدنيا وزوالها، وهوان شأنها.. يعطينا رب العزة: تصورًا عن يوم القيامة.. وعلو شأن المؤمنين علىٰ الكافرين فيه؛ دعوة للاهتمام باليوم الآخر، والاستعداد له، وعدم الانشغال التام بأمر الدنيا وزينتها. فيقول الله سبحانه:

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾

يعني: ﴿وَتَرَكْنَا﴾ أهل الدنيا، بما فيهم يأجوج ومأجوج ﴿بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ﴾ يتصارعون، ويتنافسون، حتىٰ تقوم القيامة.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ ساعتها النفخة الثانية ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ﴾ كلهم للحساب ﴿جَمْعًا﴾.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾

يعني: ﴿وَعَرَضْنَا﴾ أي: وقربنا ﴿جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ أي: قربًا واضحًا، لافحًا.

هؤلاء ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ وهم في الدنيا ﴿فِي غِطَاءٍ﴾ وعمى ﴿عَن ذِكْرِي﴾ وهديي في القرآن، فلا يهتدون به ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ له من

النبي ﷺ، لعنادهم واستهزائهم، وبعدهم عن الهداية. وفي هذا منتهى التهديد، وقوة الوضوح في الدعوة للهداية.

ثم يكون التهديد الأوضح لمن أعرض عن الذكر، واتباع ما جاء به الرسول ﷺ.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾

يعني: ﴿أَ﴾ كفر هؤلاء فحسبوا أنهم على صواب في ﴿أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى﴾ كالملائكة وعيسى، وعزير ﴿مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾، وأتركهم دون عقاب..؟! أبدًا.. أبدًا.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ هؤلاء وأمثالهم ﴿نُزُلًا﴾ ينزلون فيه ويقيمون، لا يخرجون منها أبدًا.

ثم ينبه ربنا ـ بمنطق الماديين ـ على جهل القوم بالمكسب والخسارة، فيقول لحبيبه ﷺ:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾ ونعرفكم ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ يا مَن تتعاملون بحساب المكسب والخسارة.. أيها الماديون..؟

هؤلاء الأخسرون.. هم الذين وصفهم رب العزة بثلاثة أوصاف، في قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ أي:

الوصف الأول: هم أولئك ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ﴾ ضاع وبطل ﴿سَعْيُهُمْ﴾ وعملهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ﴾ يظنون بمنطقهم ﴿أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ ويستحقون الجزاء الحسن عليه.

الوصف الثاني: هم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ الدالة على توحيده تعالى وقدرته.

والوصف الثالث: هم أولئك الذين كفروا، بـ ﴿لِقَآئِهِۦ﴾ تعالىٰ في يوم القيامة، وأنكروا البعث والحساب تمامًا.

ولذلك يقول الله تعالىٰ: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ بطلت، وضاع ثوابها حتىٰ لو كانت صنعًا حسنًا، وكذلك ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ ولا قدرًا.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾

أي: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور، من إحباط أعمالهم، وعدم إقامة وزن لهم.. هو ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ وبالتالي: لهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ يدخلونها، بسبب أنهم ﴿كَفَرُوا۟﴾ بآيات ربهم ولقائه وأنهم ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى﴾ الدالة علىٰ وحدانيتي وقدرتي، ﴿و﴾ اتخذوا ﴿وَرُسُلِى﴾ الداعين إلىٰ الإيمان بي ﴿هُزُوًا﴾ يسخرون منهم، ويستهزئون بهم.

وبعد أن ذكر المولىٰ سبحانه أن الكفار منزلهم جهنم، وهددهم بذلك، وخوفهم منه، يذكر المؤمنين مبشرًا لهم بمنزلهم الحسن، وهو الجنة. فيقول المولى عز وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾

يعني: إذا كان الكفار كما ذكرنا، فـ:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ وهو وسط الجنة وأحسنها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يخرجون منها، ولا يموتون فيها. وكذلك ﴿لَا يَبْغُونَ﴾ أي: يطلبون ﴿عَنْهَا حِوَلًا﴾ أي: تحولًا عنها، وانتقالًا منها.

هذا، ولمَّا قال القرآن عن اليهود الذين أوعزوا للكفار أن يسألوا النبي ﷺ عن الروح ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. وقال اليهود: لقد أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء.. !! أنزل الله عز وجل. قوله تعالىٰ:

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾

يعني: ﴿قُل﴾ لهؤلاء وهؤلاء: ﴿لَّوْ كَانَ﴾ ماء الْبَحْرِ كله ﴿مِدَادًا﴾ أي: حبرًا، كتابة ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ الدالة علىٰ آياته، وحكمه، وعجائبه ﴿لَنَفِدَ﴾ ماء الْبَحْرِ، أي:

انتهىٰ ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ﴾ وتنتهي ﴿كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾، حتىٰ ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ﴾ أي: بمثل هذا الماء، ﴿مَدَدًا﴾ أي: ماءً آخر، وثالث ورابع إلىٰ ما لا نهاية.. لمَا نفدت كلمات ربي كذلك.

وما ذلك إلَّا لأنها من عند الله، وليست من عند محمد ﷺ، كما يزعمون. ولذلك:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾.

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لا أعلم الغيب، ولكن ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ﴾ الذي يجب توحيده وعبادته ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

ولذلك: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟﴾ أجرًا حسنًا عند ﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ في يوم البعث ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ يُسعد به العباد، ويُصلح البلاد، ويتوافق مع شرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾. وعلىٰ ذلك، فكل ما أخبرتكم به، فهو من عند الله، وكل ما أمرتكم به، فهو من الله عز وجل.

* * *